المحاضرة الرابعة: الاتجاه التاريخي في الرواية العربية

الدكتورة زهرة خالص

1-علاقة التاريخ بالخطاب السردي:

إذا كان الخطاب الأدبي يتسم بالتشويق ويحدث المتعة في النفس، فإنّ الخطاب التاريخي يسعى إلى تقديم حصيلة من النتائج المترتبة عن وقائع معينة وأحداث محددة جرت في زمن مضى. فخطاب التاريخ يرتبط أساسا بالماضي الذي يشده إليه ويبعده عن الغلو بخياله إلى استشراف آفاق المستقبل والتنبؤ بخباياه ومفاجآته، وهو الشيء الذي يهدف إليه خطاب الأدب قبل كل شيء.

فالتاريخ[1] يتمثل في البحث والتنقيب، وهو علم قائم بذاته له قواعده وأصوله وأدواته، يتجلى برؤية صادقة أمينة للأحداث التي يسردها كما جرت على أرض الواقع والحقيقة إلى جانب هذا التاريخ أو من عمقه، ينهض نوع آخر منه مغيّب ومسكوت عنه في كل كتب التاريخ التي تعنى بالحوادث وما شاكلها من الدّروس والعبر التي يمكن استخلاصها منها: "التاريخ هو الزمان، والزمان ليس منفصلا عن الإنسان، الإنسان بمفرده تاريخ في جوهره، له بداية ونهاية"[2]. ثم إنّ خطاب التاريخ يتسم بالتقريرية المباشرة الجافة، وهو وإن حاول أن يكتب قصة أو حكاية، أو رواية، فإنه يهدف أساسا إلى تقديم النتائج المترتبة عنها والمبلورة مباشرة في ذهنه دون إعطاء أي اعتبار لعنصر التشويق والمتعة في الموضوع. ونستنتج من ذلك أنّ خطاب التاريخ يوجب الصّدق والكذب. أما ظاهرة الامتزاج والانجذاب بينهما فربما نعود بجذورها إلى عهد "هيرودوت" "Hérodote"، حين رأى أنّ كلا من الأديب والمؤرخ كليهما لم يلتزم بحدوده، فالمؤرخ يرى أن الأديب لم يكتف بأدبه، ويرى الأديب أن المؤرخ لم يحترم تاريخه وتجاوزه إلى غيره، وهو ما يسميه رشيد بوجدرة: "بالإغراء المتبادل"، أي ثمة إغراء

---

(1) التاريخ والتوريخ وهو لفظ مشتق من أرّخ يؤرّخ توريخا: أي تعريف الوقت أو تحديد يومه. وهو العلم الذي يُعنى بتسجيل جملة الأحداث والأحوال التي يمرّ بها كائن ما، ويصدق على الفرد والمجتمع والظواهر الطبيعية ونحوها، مثل (تاريخ العالم)، و(تاريخ الإسلام)، و(تاريخ العرب) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مجلد 3، دار صادر، بيروت، لبنان، ص 4.

(2) ينظر: سعيد يقطين، الرواية والتراث السردي، المركز الثقافي العربي دار البيضاء، المغرب،1992م، ص 93.

تاريخي في الرواية وإغراء أدبي في التاريخ[1]. فالأديب يتعامل مع التاريخ، والمؤرخ أديب بمعنى ما، بدليل أننا نجد الكثير من المؤرخين العرب الذين اتصف عملهم بمنهجية ما وكانوا مع ذلك أدباء في أسلوبهم وفي كتاباتهم، (مثل المسعودي، وابن خلدون، وابن جُبير، ...) فالعلاقة الجدلية بين التاريخ والأدب واردة رغم ما يكتنفها من غموض في بعض الأحيان، غير أنّ التاريخ كإغراء بالنسبة للأديب وخصوصا الروائي يظل قائما بصورة كبيرة وقوية، وأنّ التجاذب بين الطرفين يكمن في عنصر (التفاعلية) التي تشد أحدهما إلى الآخر. ونستنتج من ذلك أنّ العلاقة بين المؤرخ والأديب ثابتة وقد لا يكون بوجدرة مبالغا كثيرا في هذا السبيل عندما اعتبر الروائي مؤرخا محتشما والمؤرخ أديبا محتشما[2]، إذ من طبيعة التاريخ البحث عن الموضوعية في المقام الأول، وتجعل الموضوعية في مقام ثانوي.

وبما أنّ التاريخ علم قائم بذاته له قواعده وأصوله، فهو لم يعد ذلك السرد المبسط للأحداث، بل أصبح مجموعة من العلوم والمعارف النفسية والاجتماعية وغيرها تهدف إلى اكتشاف الحقيقة الثابتة وهذا لا يمنع الأديب أن يغير بعض الحقائق التاريخية أو يعدّل فيها، بدليل أنّ "وليام فولكنر" "William Faulkner" وهو كاتب وروائي تحدث في رواياته عن جنوب الولايات المتحدة الأمريكية، وحرب الانشقاق التي وقعت فيما بين الشمال والجنوب بكل أبعادها المختلفة[3].فكان إذا تحدث عن الجنوب ربطه بقضية الزنوج، وبتلك الخادمة الزنجية المترهلة، وهي أبدا إما ممرضة أو خادمة ليس غير. وهذا في بداية هذا القرن، حتى قيل: إن جنوب الولايات المتحدة له. وهذا يؤكد أنّ الأديب قد يأتي بأشياء يجهلها حتى المؤرخ نفسه، كما أعلن عن ذلك "بلزاك" "Balzac"[4]. وفي

---

(1) ينظر: حوار مع (بوجدرة)، أجراه صلاح الدين الأخضري، جريدة الشعب، الجزائر، عدد 7171، 5نوفمبر 1986م، ص11.

(2) ينظر: حوار مع بوجدرة، أجراه صلاح الدين الأخضري، جريدة الشعب، ص11.

(3) ولد في نيو إلباني بولاية ميسيسيبي في أمريكا الشمالية 1897، توفي في سبتمبر 1962.
ينظر:.le petit robert des noms propres, éd, librairie de robert, paris, France, p 1227

(4) بدأت هذه الحروب في 1861 ما بين الولايات الجنوبية التي كانت تحاول الإنفصال عن باقي الولايات المتحدة، وذلك لممارسة العبودية التي كانت ولايات الشمال تسعى إلى إلغائها بالإضافة إلى الحفاظ على الولايات المتحدة، وقد وقع رئيس "أبرهام

هذا الصدد في مقدمة بعض أعماله حيث يقول: " أريد كتابة تاريخ التقاليد والعادات وغيرها مما أهمله المؤرخون"[1]. فالروائي يستدعي الماضي أو التاريخ الذي يقوم على أساس الفن. ويقصد به توظيف رموز التاريخ والماضي وإسقاطهما على ما هو حادث وقائم في الحاضر، وهي وسيلة تهدف إلى توصيل فكرة ما بطريقة تعبيرية فنية. وبذلك يتجنب الروائي الأسلوب التقريري المباشر الذي يحوّل به التاريخ إلى رواية أو فن روائي بالاستعانة بأدوات ووسائل فنية قصد التشويق وخلق المتعة كي يوصل المعنى المقصود، أو كل ما يريد إيصاله إلى أكبر عدد ممكن من القراء، فالتاريخ على أساس هو رمز من الماضي السائد في الحاضر.

والروائي يتخذ من حاضره سلاحا، فهو يزخر بمعارف وعلوم تبحث من يوظُفها ويجسّدها على أرض الواقع. وبعض الروايات الحديثة إن لم نقل إنّ معظمها تحاول أن تؤرّخ لحاضرها عبر زمنين اثنين:

– **الزمن الأول**: زمن الماضي التاريخي الذي تستعيد رموزه المختلفة وتمزجها بالحاضر الراهن من خلال قضية ما.

– **الزمن الثاني**: زمن الحاضر المعيش، حيث تؤرخ للحياة اليومية ولعلاقات الناس فيما بينهم وهي بذلك تعكس وجهة نظر الروائي في القضية التي يعالجها. وهو سيتحضر التاريخ لهدفين:

1. إما لمحاولة تقديم هذا التاريخ، أو التعريف به على سبيل الإعجاب به.

2. وإما للإستعانة بالأبعاد الرمزية التي يتوفر عليها التاريخ العربي الإسلامي.

لنكولن""Abraham Lincoln"في 1863م قرار منح الحرية لجميع العبيد في الولايات المتحدة، وقد انتهت هذه الحرب في 1865م. ينظر غربال محمد شفيق وآخرون، الموسوعة العربية الميسرة، دار الشعب، القاهرة، مصر، 1965م، ص 696، ص697.

(1) ولدOnori de Balzac في تور بفرنسا في 1799م، وتوفي بها في 1850م، وهو كاتب وروائي.

والروائي له إمكانية توظيف التاريخ بطريقة مفتوحة وبحرية وتوغل. فهو يختار ثغرة تاريخية ومنها يفتح آفاقا جديدة للمؤرخ تجعله تلك الثغرة يتفطن إلى أمور كثيرة كان يجهلها[1]. وقد وظف الروائي التاريخ بطريقة مفتوحة وقد تصرف في بعض أحداثه كما حلاله، وهو حين يكتب الرواية يستعمل أحداثا تاريخية مضبوطة ويضيف إليها بعض المكونات الذاتية التي تعطي شيئا اسمه متعة النص[2].

2-نشأة الروايات التاريخية:

تمهيد:

بدأت بالظهور في الحقبة التي ازدهر الاهتمام فيها بتأليف الروايات التاريخية وتعريبها، وروايات المغامرات والحب وإذا كان "البستاني" يعتبر أنموذجا للتأليف من بين عدد كبير دونه أهمية وتأثيرا، فإن عددا وافرا من الروايات التاريخية الأجنبية كانت قد بدأت بالظهور معرّبة إبان تلك الفترة، من ذلك أنّ تعريبين متتاليين لرواية "الكونت دي مونت" لـ"إسكندر دوماس" "Alexandre Dumas"، ظهر الأول الذي قام به "سليم صعب" في عام 1866م، في بيروت والثاني في القاهرة قام به "بشارة شديد" في سنة 1871م، وبعد عشر سنوات فقط، عرّب "قيصر زينة" رواية دوماس الأخرى "الكونت دي مونغوميري" وصدرت في القاهرة مسلسلة في جريدة الأهرام خلال عام 1881م، ثم رواية "الفرسان الثلاثة" في أربعة أجزاء بتعريب "نجيب حداد" ،ظهرت في القاهرة عام 1888م هذا فضلا عن روايات أخرى كثيرة لـ"فولتير" و"فينلون"، و"شاتوبريان"، و"سكوت" وغيرهم[3].وهذا الأمر كان مثار اهتمام "جورجي زيدان"، فقد أورد رصد الظاهرة الإقبال على التعريب الروائي في كتابه "تاريخ آداب اللغة العربية"، و مما قال فيه إنّ معاصريه " قد أكثروا من نقل الكتب عن الفرنساوية والإنجليزية والإيطالية وهي تسمى في اصطلاح أهل هذا الزمان "روايات". والروايات

(1) ينظر: من محاضرة لرشيد بوجدرة، توظيف التاريخ في الرواية، عرض: الطاهر دحماني، المساء، الجزائر، العدد 345،5نوفمبر 1986م، ص10.

(2) ينظر: سعيد سلام، التناص التراثي -الرواية الجزائرية أنموذجا -عالم الكتب الحديث، الأردن، 2010، ص183، ص184.

(3) ينظر: عبد الله إبراهيم، الرواية العربية: السرد والدلالة، مجلة سيميائيات، جامعة وهران، ع1، 2005، ص62، ص63.

المنقولة إلى العربية في هذه النهضة لا تعد ولا تحصى، وأكثرها يراد بها التسلية، ويندر أن يراد بها الفائدة الإجتماعية أو التاريخية أو غيرها"[1]. وما أن ينتهي من رصد ذلك إلا وينتقل إلى وصف الكيفية التي تلقى بها القرّاء العرب تلك الروايات دون أن ينسى الفرق بينها والمرويات السردية العربية قائلا:" رحّب قراء العربية العقلاء بهده الروايات لتقوم مقام القصص التي كانت شائعة بين العامة لذلك العهد مما ألفه العرب في الأجيال الإسلامية الوسطى، نعني قصة علي الزيبق، وسيف الدين بن ذي يزن، والملك الظاهر. فضلا عن القصص القديمة كعنترة، وألف ليلة، فوجدوا الروايات المنقولة عن الإفرنجية أقرب إلى المعقول مما يلائم روح العصر"[2]. فقد اكتسحت المعربات التاريخية عالم السرد العربي الحديث في الحقبة التي كان "جورجي زيدان" منهمكا في تاريخياته، وبخاصة روايات "دوماس الأب" التي ركز فيها على تاريخ فرنسا، هادفا من ذلك إلى جذب القراء الذين كانوا يجهلون أشياء كثيرة عن تاريخ بلادهم بعد أن تعربت بوصفها إحدى الدول الأوروبية الكبرى. لكن "جورجي زيدان" الذي شغف بهذه السرود التاريخية التي تهدف هي الأخيرة إلى تأسيس وعي بالماضي، كان يريد من وظيفة هذه السرود أن تحقق الهدف نفسه كما تقرر في تاريخيات "دوماس" و"سكوت" فقط بأسلوب مختلف[3].

3–تقديم الرواية التاريخية "سيد قريش" للروائي "معروف الأرناؤوط":

تكمن أهمية الرواية التاريخية في أنها لم تظهر في مرحلة معينة من تاريخ الرواية العربية، ثم اختفت بعد ذلك، بل رافقت تاريخ الرواية العربية منذ النشأة الأولى حتى أيامنا هذه، وتطورت بتطور الأحداث، و تغير الذوق الجمالي، فتأثرت في طور النشأة بالتراث الشعبي، كحكايات ألف ليلة وليلة والسير الشعبية، إذ عمد الكتاب في تلك الفترة المبكرة إلى تقديم التاريخ في قالب قصصي بهدف التسلية وإمتاع القراء، ثم طغت الرومانسية على الروايات التاريخية، فمال الروائيون إلى الاهتمام

(1) جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج4، القاهرة، 1914م، ص 230.

(2) المرجع نفسه، ،الصفحة نفسها.

(3) ينظر: عبد الله إبراهيم، الرواية العربية، السرد والدلالة، ص 63.

بالأساطير ذات الأبعاد التاريخية، كما فعل "موريس كامل" في روايته "أسطورة الجبل"، و"عبد الله حشيمة" في روايته "جبل الآلهة"، كما ابتعدوا عن المبالغة والغلو في سرد الأحداث، والتصرف بها[1].

وتعددت مواقف الروائيين من التاريخ، واختلفت نظراتهم إليه كما تعددت أشكال إعادته، فبعضهم اعتبر التاريخ مجرد مادة لتسلية القراء، ك"جرجي زيدان" الذي ألف روايات كثيرة لتسلية القراء، و كان يتصرف بالمادة التاريخية، ويغير في أحداث التاريخ بما يحقق لروايته المتعة والإثارة، ويخلق جواً من المخاطر والمغامرات المشوقة، وبعضهم استخدم التاريخ للدفاع عن القومية العربية، فجعل الماضي في خدمة الحاضر، مما استوجب النظر إلى التاريخ نظرة تقديس وإجلال، والحفاظ على أحداث الماضي، وعدم العبث بهما. وقد تجلى هذا الموقف في روايات معروف الأرناؤوط الذي نظر إلى التاريخ العربي في ضوء الحاضر، فرأى فيه قبساً مضياً وعزاءً جميلاً[2].

عرض معروف الأرناؤوط في روايته الضخمة "سيد قريش" للحياة السياسية والاجتماعية في العصر الجاهلي عشية ظهور الإسلام. ويبدو أن الأرناؤوط لم يختر الفترة التاريخية السابقة مادة لروايته دون هدف، وإنما اختارها ليبين للقارئ التحول الكبير الذي حدث نتيجة ظهور الإسلام، وظهور النبي ص، وتوحيده القبائل العربية تحت راية الدين الجديد، بما تضمن من قيم إيجابية إنسانية نبيلة، وبما طرحه من مبادئ وأهداف سمت بالإنسان والمجتمع على حد سواء. وقد ركز الكاتب اهتمامه، من خلال عرضه لتاريخ العرب قبل الإسلام، على إبراز النقاط التالية:

1- الإشادة بأخلاق العرب في مقابل ذم أخلاق أعدائهم من الفرس والروم، فالعرب شرفاء يأبون الضيم، ويهرعون لإغاثة الملهوف، والمرأة العربية حرة أبية عفيفة، تفضل الموت على أن يكلم شرفها، أو تمس بسوء، أما أعداؤهم الفرس والروم فلا يحفظون العهد، ولا يتورعون عن الإساءة إلى المرأة الحرة إرضاءً لغرائزهم البهيمية، لقد حاول "هيباس" القائد الروماني الاعتداء على "هند" بنت امرئ القيس الشاعر العربي المشهور، ولكنها لم تمكنه من نفسها، وقاومت غطرسته وغروره، واستنجدت بالنخبة

---

[1] ينظر: إبراهيم السعافين، تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام، دار المناهل، ط2، بيروت، 1987، ص 201

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص165

العربية، فإذا بالشاعر حسان بن ثابت، وأبي سفيان، وأمية بن أبي الصلت يهبون لنجدتها، وينتقمون للكرامة العربية بقتلهم هيباس شر قتلة[1]. ويستدل الكاتب على غدر أعداء العرب بما ترويه كتب التاريخ من زيارة الملك الغساني لملك الروم، ومحاولة الأخير الغدر به[2].

2-الإشارة إلى إمكانات العرب المهدورة، بسبب تحالف كل طرف منهم مع عدوهم المشترك، وتوجيه السلاح بعضهم ضد بعض، فالمناذرة يقفون إلى جانب الفرس، والغساسنة يقفون إلى جانب الروم، والفرس والروم يستخدمون العرب درعاً يصد عنهم الغارات، وكثيراً ما يتواجه الغساسنة والمناذرة في ساحة المعركة، فيهدر العربي دم أخيه العربي. وقد صور الكاتب في الفصل السابع عشر "هدنة بين عدوين" معركة جرت بين الغساسنة والمناذرة، وبيّن من خلال الراوي أن الخاسر هو كلاهما، وأن المنتصر هو العدو: "اللهم إن هذه النفوس التي توافت إلى الموت حتى حصدتها سيوله العارمة لم تزهق في الدفاع عن أرض الوطن، ولكنها استساغت الفناء في سبيل الأجنبي! لقد كان مقدراً لهذه النفوس الهالكة أن تحفر في هذه البطحاء رموساً كريمة لو أنها ارتضت الموت في سبيل الفكرة المحسنة إلى وطنها، ولكن النسيان الممقوت سيطوي في غياهبه هذه الشموس الخابية لأن أنوارها لم تشأ السطوع في آفاق العرب بل فضلت أن تنير آفاق الفرس والروم"[3].

3- الإشارة إلى الروح القومية التي بدأت تضطرم في نفوس بعض الشخصيات التاريخية العربية، وقد جاء الإحساس بالقومية العربية في إطار رفض الانصياع والخضوع للفرس والروم، والأمل في الخلاص من ظلمهم، والإيمان بالنبي المنتظر الذي سيخلص العرب من الذل والهوان والتجزئة، ويوحدهم تحت راية الدين الجديد، ويخرجهم من الظلمات إلى النور. تقول هند بنت امرئ القيس لأمية بن أبي الصلت: "نعم نعم، وكيف لا أؤمن به "الرسول" ص وهذه الروح التي تبعث في أعماق نفسي تأبى عليّ الرضوخ للروم والفرس الذين يسرفون في إرهاق قومنا في الشام والعراق"[4]. وقد عبر الكاتب من

---

[1] ينظر:معروف الأرناؤوط، سيد قريش، ج1، ص86

[2] ينظر:المصدر نفسه ، ص156

[3] المصدر نفسه، ص133

[4] معروف الأرناؤوط، سيد قريش، ج1،، ص58

خلال شخصية "ليلى"، وهي شخصية-خيالية-غير حقيقية، عن ضرورة تحويل مجرى الصراع، من صراع عربي – عربي إلى صراع عربي – أعجمي، وتوجيه كل الطاقات والإمكانات باتجاه محاربة العدو الخارجي، وتوحيد كل الجهود، وصبها في المعركة الحقيقية: "إن في العراق اليوم صراعاً بين الفرس والعرب، صراعاً دامياً بين أخوة لكم يدافعون عن كرامتهم وبين عظيم الفرس الذي أرادهم على الخضوع لقواده وأجناده فرفضوا أن يسايروه في هذا الذي أراده إليهم. نعم نعم أيها السادة اذهبوا إلى العراق فإن الدماء التي تراق في بطحائه كفيلة بإرواء هذه النفوس العطشى"[1].

4- بعث الأمل في النفوس من خلال أحاديث الكاهن "سطيح" عن المستقبل المشرق الذي ينتظر العرب في ظل الدين الجديد الذي سيحقق لهم المجد والحضارة والنصر المؤزر على أعدائهم "أيها الرعاة انظروا إلى الصحراء المتطامنة إلى حرها وهجيرها العائشة في صمت جبالها الغارقة في سكون أفقها، إنها ستنحسر عن روح سامية تمشي بكم إلى شتى الآفاق فيكون لكم في البر والبحر الملك الضخم الذي لا يبلى والمجد الذي لا يفنى والفضيلة التي تغسل حوباء النفس، كذلك سيمشي بكم هذا الروح الأسمى إلى دين جديد تعرفون به رباً محسناً جواداً عادلاً كريماً ينقذكم من جحيم هذا البؤس الذي تصطلون بحره ثم يطل بكم على أفق يمور بالطمأنينة والسكون والراحة"[2].

يكتب النص –كما يقول سعيد يقطين – "في إطار بنيات ثقافية واجتماعية محددة"[3]، أي أن النص ينتج في زمن محدد، هو زمن الكتابة الذي يؤدي دوراً رئيساً في فك رموز النص، والكشف عن دلالاته، وتحديد الدافع إلى كتابته، لذا نرى من الضروري الانطلاق من الفترة الزمنية التي أنجزت فيها رواية "سيد قريش" لتحديد الدافع إلى كتابتها، والسبب الذي يكمن وراء تركيز "الأرناؤوط" الاهتمام على النقاط التي تحدثنا عنها سابقاً.

لقد كتب معروف الأرناؤوط روايته "سيد قريش" في بداية العقد الثالث من القرن العشرين،

---

[1] معروف الأرناؤوط، سيد قريش، ج3، ص18.

[2] معروف الأرناؤوط، سيد قريش ج1 ص189.

[3] سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي،ط2، 2001، ص34.

وكانت سوريا آنذاك ترزح تحت نير الاحتلال الفرنسي، وشهد الواقع السوري في تلك الفترة ثورات شعبية، عبّر فيها الشعب عن رغبته بالتحرر من الاستعمار، كما شهد على المستوى الثقافي ارتداد "الأدباء في سورية إلى التراث العربي، وبلغ اندفاعهم حداً من القوة والعنف كاد يفقد الحاضر شخصيته، فيذوب في الماضي"[1]. وقد ارتد "الأرناؤوط" مع من ارتد من الأدباء إلى حقبة تاريخية بعيدة، ومضيئة في التاريخ العربي، بهدف استنهاض الشعب، وبث روح الأمل والتفاؤل فيه، ودعوته إلى الاستفادة من دروس الماضي في توحيد الجهود، ورص الصفوف، وضرورة تجاوز الخلافات، والتمسك بالوحدة الوطنية للوقوف بوجه العدو الخارجي.

إنّ "الأرناؤوط" يتعامل مع التاريخ على أنه مغزى ودروس وعبر، ولعل الدرس الذي أراد من أبناء شعبه أن يتعلموه من التاريخ هو أهمية الوحدة في تحقيق النصر، وتجاوز المحن والمصاعب. وقد لاحظ "إبراهيم السعافين" في دراسته لروايات "الأرناؤوط" التاريخية أن الكاتب يلجأ في بناء روايته إلى الرمز، وأن رواية "سيد قريش"، مبنية على رمز محدد، هو الوحدة العربية التي تجلت في انتصار العرب على الفرس في معركة ذي قار، ثم انداحت لتشمل المنطقة العربية كلها بظهور الدين الجديد[2]. وهكذا، لجأ "الأرناؤوط "إلى التاريخ ليقدم لأبناء شعبه الدروس والعبر في كيفية مواجهة المصاعب والمحن، وقرأ أحداث التاريخ في ضوء الحاضر المعيش ومتطلباته وظروفه، ولذا لم يفعل ما يفعله المؤرخ، فلم يتقيد بالزمان والمكان، وزج بشخصيات متخيلة في الأحداث، ولم يلزم نفسه – على الرغم من أنه أشار إلى المصادر التاريخية التي استقى منها مادة روايته – بأحداث التاريخ، ولم يتقيد بالحقيقية التاريخية، بل تصرف فيها بما يخدم فكرة الرواية، والرمز الرئيس فيها [3].

4–جورجي زيدان والكتابة التاريخية –السردية:

---

[1] فؤاد المرعي، مدارات التاريخ في الرواية السورية، مجلة البيان، الكويت، العدد 351، 1999 ص10.

[2] ينظر:إبراهيم السعافين، تطور الرواية العربية المعاصرة في بلاد الشام، ص 174

[3] المرجع نفسه، ص62

ظهرت تاريخيات "جورجي زيدان" لتقدم أول سلسلة، شبه متكاملة تقوم على تمثيل سردي تاريخي للأحداث العربية والإسلامية منذ العصر الجاهلي إلى الإنقلاب العثماني في نهاية العقد الأول من القرن العشرين، وعلى الرغم من أن العمر لم يسعف "جورجي زيدان" بإكمال السلسلة، فظلت بعض العصور دون تغطية. إلا أنه كان يعلن باستمرار أنه في سبيله لإعادة تفريغ التاريخ العربي – الإسلامي من مظانه الكبرى والمعقدة وتقديمه مبسطا ومتتاليا. ومن أجل شد الإنتباه كان يختلق قصة حب، أو ينتزع من ذلك التاريخ حكاية ليجعلها الوسيلة التي بها يستكشف الوقائع التاريخية[1]. ولهذا كان يشير دائما وبإلحاح، وفي معظم رواياته، إلى أنه ينتقل إلى مرحلة، بعد أن فرغ من تقديم أخرى، بحيث يبدو التصميم والقصدية واضحين، وما الحكاية إلا وسيلة لإثارة الإهتمام، كان يذكر المصادر الأصلية التي يستعير منها الأخبار التاريخية منها. وبعد أن أتم سبع روايات تاريخية وجد أنه من اللازم عليه تقديم تفسير لطبيعة الكتابة التاريخية –السردية لديه، وبذلك فقد استنبط القانون العام الذي سار عليه والذي سيسير عليه إلى النهاية، جاء ذلك عام 1902م في المقدمة المهمة التي وضعها كمدخل لرواية "الحجاج بن يوسف الثقفي"[2].وبيّن فيها وظيفة الرواية التاريخية عنده، ووظيفتها عند الكتاب الأوربيين، ووظيفة الحكاية السردية داخل النص، وأخيرا كشف النقطة الأساسية في كل مشروعه الروائي، وهي إعتبار رواياته مرجعا شأنها شأن كتب التاريخ، قال: "رأينا بالإختبار أنّ نشر التّاريخ على أسلوب الرواية أفضل وسيلة لترغيب الناس في مطالعته، والاستزادة منه، وخصوصا لأننا نتوخى جهدنا في أن يكون التاريخ حاكما على الرواية لاهي عليه كما فعل بعض كتبة الإفرنج .وفيهم من جعل غرضه الأول تأليف الرواية وإنما جاء بالحقائق التاريخية لإلباس الرواية ثوب الحقيقة، فجرّه ذلك إلى التساهل في سرد الحوادث التاريخية بما يضل القراء. وأما نحن فالعمدة في روايتنا على التاريخ، وإنما نأتي بحوادث الرواية تشويقا للمطالعين، فتبقى الحوادث التاريخية على حالها، ندمج فيها قصة غرامية. تشوق المطالع إلى استتمام قراءتها، فيصح الإعتماد على ما يجيء في هذه الروايات من

(1) ينظر: براهيم السعافين، تطور الرواية العربية المعاصرة في بلاد الشام، ص63.

(2) ينظر: جورجي زيدان، الحجاج بن يوسف الثقفي، دار الهلال، القاهرة، 1950، المقدمة.

حوادث التاريخ مثل الإعتماد على أي كتاب من كتب التاريخ من حيث الزمان والمكان والأشخاص، إلا ما تقتضيه القصة من التوسع في الوصف مما لا تأثير له على الحقيقة"[1].

فمن الواضح أن الفوارق الدقيقة بين التاريخ كخطاب موضوعي، والسرد كفن لتشكيل الأحداث كانت ملتبسة في ذهن "جورجي زيدان" فلم يكن يظن أنه بوساطة السرد سينزلق ترتيب الأحداث ودلالتها إلى سياق غير سياقها، وإعادة تشكيلها سرديا لن يحافظ بأي شكل من الأشكال على أبعادها الموضوعية، ولهذا فإن جوهر عمل "جورجي زيدان" الملتبس هذا سينتهي به إلى الإنقسام على نفسه فهو في الوقت الذي يريد أن يجعل التاريخ حاكما على الرواية، فإنه لم يأل جهدا في بث المواعظ الاعتبارية المتعددة الأبعاد والأغراض في تضاعيف رواياته، وبذلك كان يستخلص عبرة، فالتاريخ غادر ميدانه كسلسلة وقائع، وأعيد تركيبه ليكون مصدر عبرة، في حين يريده هو أن يكون مرجعا[2].

قائمة المصادر والمراجع:

1-باللغة العربية:

1. إبراهيم السعافين، تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام، دار المناهل، ط2، بيروت 1987
2. جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج4، القاهرة، 1914م.
3. سعيد سلام، التناص التراثي -الرواية الجزائرية أنموذجا -عالم الكتب الحديث، الأردن، 2010.
4. سعيد يقطين، الرواية والتراث السردي، المركز الثقافي العربي دار البيضاء، المغرب،1992م.
5. سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، ط2، 2001، ص34.

(1) جورجي زيدان، الحجاج بن يوسف الثقفي، دار الهلال، القاهرة، 1950

(2) ينظر: عبد الله إبراهيم، الرواية العربية: السرد والدلالة، ص 64.

-الروايات:

.1معروف الأرناؤوط، سيد قريش ط1، طار الفتى العربي، دمشق 1929.

2.جورجي زيدان، الحجاج بن يوسف الثقفي، دار الهلال، القاهرة، 1950

-الجرائد:

1.من محاضرة لرشيد بوجدرة، توظيف التاريخ في الرواية، عرض: الطاهر دحماني، المساء، الجزائر، العدد345،5نوفمبر 1986م.

2.حوار مع (بوجدرة)، أجراه صلاح الدين الأخضري، جريدة الشعب، الجزائر، عدد 7171، 5نوفمبر 1986م.

-المجلات:

1.فؤاد المرعي، مدارات التاريخ في الرواية السورية، مجلة البيان، الكويت، العدد 351، 1999

2.عبد الله إبراهيم، الرواية العربية: السرد والدلالة، مجلة سيميائيات، جامعة وهران، ع1، 2005.

-القواميس:

1.ابن منظور، لسان العرب، مجلد 3، دار صادر، بيروت، لبنان.

2-باللغة الفرنسية:

-le petit robert des noms propres, éd, librairie de robert, .64 paris, France.